الفصل السابع

الرازي والتنجيم، ورأيي في الموضوع

الفخر الرازي والتنجيم:

وقد نسب إلى الرازي القول بالتنجيم، ولم ينسب ذلك إلى غيره، ممن هو في مثل شأنه وقدره من علماء الإسلام، حتى إنك لتقرأ في دائرة المعارف الإسلامية: «وقد أجمع المتكلمون والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم، ولم يشذ عنهم إلا نفر قليل كالكندي وإخوان الصفا وفخر الدين الرازي»(١).

ولم أجد في كتب الرازي التي اطلعت عليها ما يدل على ذلك(٢). ولعل من نسبه إلى التنجيم أخذ ذلك من كتاب «السر المكتوم في مخاطبة النجوم»، فإنه ينسب إلى الرازي. لكن قال ابن السبكي: «لم يصح أنه له، بل قيل: إنه مختلق عليه»(٣).

لذا لا أظن أن الرازي يقول بالتنجيم، على الأقل على نحو ما يعتقده المنجمون، كيف والفخر إمام كبير من أئمة المسلمين، تشهد تصانيفه بالدين والإيمان والعلم والعقل... والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ النور ١٢ . وأنا ممن يظن بالرازي وأمثاله كل خير.

بل الذي وجدته من كلام الرازي صريحا قوله: «اعلم أنه لا نزاع بين الأمة في أن من اعتقد أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور، فإنه يكون كافرا على الإطلاق»(٤).

---

(١) مقال التنجيم، ٥/ص٤٩٥.

(٢) لا أثر لهذه الدعوى في: ١ ـ المحصل في أفكار المتقدمين والمتأخرين. ٢ ـ لباب الإشارات والتنبيهات. ٣ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ٤ ـ النفس والروح، وشرح قوامهما. ٥ ـ المطالب العالية. إضافة إلى تفسيره الكبير.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى، ٨/ ٨٧.

(٤) مفاتيح الغيب، ٣/ ٢٣٣، آية (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان..) البقرة، ١٠٢.

لكن الشيء الذي قال به الرازي مع قلة من المتكلمين ـ خصوصا المتأخرون منهم ـ، هو أن الكواكب أحياء عاقلة، وأنه إن كانت لها آثار على الأرض، فذلك بإقدار الله تعالى لها على ذلك. ولم يقل بأن لها هذه التأثيرات التي يدعيها المنجمون، بالتفصيل والتقعيد السابقين عنهم.

وتفصيل هذا من كتابه «المطالب العالية»، فقد جعل الفصل الأول من المقالة الخامسة في «إقامة الدلالة على أن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة»، وقال: «اعلم: أن أهل الظاهر إذا سمعوا هذا الكلام استبعدوه. وهذا الاستبعاد مستبعد منهم جدا. وذلك لأنهم يروون خبرا عن رسول الله ﷺ، أنه قال: (إن الشمس عند الغروب، يذهب بها، إلى ما تحت العرش، وعند الطلوع تسجد لله تعالى سجدة، ثم تطلع). ومعلوم أن السجود لا يصح منها إلا إذا كانت عارفة بربها. وذلك يقتضي إثبات الحياة والقدرة والعلم، فوجب بمقتضى هذا الخبر: كون الشمس حيوانا مطيعا لله عز وجل»[١].

ثم أورد في الاستدلال على ذلك حججا فلسفية، أولها الحجة القديمة: الأفلاك والكواكب متحركة بالاستدارة، وكل متحرك فحركته إما أن تكون طبيعية أو قسرية أو إرادية. والأولان باطلان، فتعين الثالث..[٢].

وبعد استيفاء الأدلة، عرج الرازي على حجج المانعين من كون الأفلاك أحياء عاقلة، وأهمها أن الكواكب تتحرك على نهج واحد ومستقيم لا تعدوه، وذلك علامة الجماد لا الحي[٣].

وأخيرا استدل الرازي بأن الكتاب الإلهي ناطق بكون الأجرام الفلكية موصوفة بالحياة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[٤].

---

(١) المطالب العالية من العلم الإلهي، ٥/ ٣٣٥. يشير إلى حديث أبي ذر الغفاري حين غربت الشمس يوما، فقال له النبي الكريم، يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه. ثم قال: فإنها تذهب تستأذن في السجود، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: اطلعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها. قال الترمذي: وفي الباب عن آخرين، وهو حديث حسن صحيح، كما في باب ما جاء في طلوع الشمس من مغربها، من كتاب الفتن. وفي هذا المعنى أحاديث أخرى، منها ما جاء في صحيح مسلم، في كتاب الإيمان، باب ٧٣، حديث ٢٥٠.

(٢) المطالب العالية، ٥/ ٣٣٦.

(٣) المطالب العالية، ٥/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٤) المطالب العالية، ٥/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧. تخريج الآيات على ترتيبها أعلاه: يس ٤٠ ـ يوسف ٤ ـ فصلت ١٢.

وحياة الكواكب قائمة بنفوسها، فلكل كوكب نفس، قال الرازي: «المختار عندي: أن النفس الفلكية جوهر مجرد عن الجسمية وعلائقها. ومع هذا، فإنها موصوفة بالإدراكات الجزئية، والإرادات الجزئية. وكذلك أيضا موصوفة بالإدراكات الكلية، والإرادات الكلية. فهي عارفة بربها، وقاصدة بهذه الحركات عبادة ربها وخالقها ومدبرها»[١].

ولما ثبت أن الفلك يتحرك بالإرادة، فذلك لأجل استفادة الكمالات من الأسباب العالية، ولذلك فإن حركات الأفلاك حركات شوقية[٢].

فإن قلت هذا نظر الفلاسفة الإسلاميين. قلت نعم، لكن الرازي يخالفهم من جهات عدة، منها: أن الفلاسفة أثبتوا للأفلاك عقولا أو جواهر عقلية، ثم رتبوها من حيث المبدأ و التأثير، فقالوا بالعقل الفعال، وهو المدبر لأحوال العالم، وبعدها العقول التسعة أو العشرة، على خلاف.[٣]. والرازي يقول حصر عدد العقول والنفوس في العشرة أو في الخمسين قول لا يليق بأهل التحقيق، ولا بالقوة العقلية البشرية، فالحق في هذا الباب ما جاء في الكتاب الإلهي حيث قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[٤].

على أن الفرق الأهم بين الرازي والفلاسفة، هو أن الكواكب ـ عنده ـ لا تستقل بالتأثير أو التدبير، فالله تعالى هو الذي يخلق هذه التأثيرات الفلكية؛ بينما أكثر الفلاسفة ينسب إليها التدبير على وجه الحقيقة. يقول الرازي في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، النحل ١٢: «لو حكمنا بإسناد حوادث العالم السفلي إلى الحركات الفلكية والكوكبية، فهذه الحركات الكوكبية والفلكية لا يمكن إسنادها إلى أفلاك أخرى، وإلا لزم التسلسل وهو محال؛ فوجب أن يكون خالق هذه الحركات ومدبرها هو الله تعالى، وإذا كانت الحوادث السفلية مستندة إلى الحركات الفلكية، وثبت أن الحركات الفلكية حادثة بتخليق الله تعالى وتقديره وتكوينه، فكان هذا

(١) المطالب العالية، ٥/ ٣٥٥.

(٢) المطالب العالية، ٥/ ٣٧٥.

(٣) المطالب العالية، ٥/ ٣٧٧ فما بعدها، ٣٨٣ فما بعدها.

(٤) المطالب العالية، ٥/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

اعترافا بأن الكل من الله تعالى وبإحداثه وتخليقه، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ يعني إن كانت تلك الحوادث السفلية لأجل تعاقب الليل والنهار وحركات الشمس والقمر، فهذه الأشياء لا بد وأن يكون حدوثها بتخليق الله تعالى وتسخيره قطعا للتسلسل. ولما تم هذا الدليل في هذا المقام لا جرم ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، يعني أن كل من كان عاقلا علم أن القول بالتسلسل باطل ولا بد من الانتهاء في آخر الأمر إلى الفاعل المختار القدير»[(١)].

وقال أيضا: «فإن قيل: لاشك أن للطلسمات آثارا مخصوصة، فلم لا يجوز أن يحصل الخوف منها من هذه الجهة؟

قلنا: الطلسم يرجع حاصله إلى تأثيرات الكواكب، وقد دللنا على أن قوى الكواكب على التأثيرات إنما يحصل من خلق الله تعالى فيكون الرجاء والخوف في الحقيقة ليس إلا من الله تعالى»[(٢)].

تفكيك كلام الرازي وتحليله:

فالمقصود إذن من وراء هذا البحث في موقف الرازي من التنجيم، أنه يمكن لنا أن نميز في كلام الرازي بين ثلاثة مسائل:

ـ الأولى: مجاراة الرازي للفلاسفة في نسبتهم العقل والنفس إلى الكوكب، وفي بعض كلامهم في طبيعة حياته، وفي شكل حركته وغرضه منها، وتمييزهم بين العقل الفعال والعقول العشرة، وترتيبهم لها... ونحو ذلك.

وقد تبع الرازي في هذا جماعة من متأخري أهل الكلام كالإيجي والجرجاني..[(٣)].

فهذا ـ ومثله ـ أقول فيه: ينبغي الإعراض عنه بالكلية. فلا دليل لنا على شكل حياة الفلك، وهل له نفس أم لا، وهل لحركته غرض أم لا، ونحو ذلك من

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢١.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٣/ ٦٢، الأنعام ٧٩. وما قاله الرازي في قصة إبراهيم مع نمرود ـ البقرة ٢٨٥ ـ هو من هذا الباب. وراجع فيما يتعلق بالطلسمات كتابي عن: الغيب والمستقبل، أثناء الحديث عن السحر.

(٣) انظر: المواقف في علم الكلام، للإيجي، وشرحها، للجرجاني، ٢/ ٦٦٢ فما بعدها (المقصد الأول من المرصد الثالث: في النفوس الفلكية). أي هم تبعوا الرازي.

التفاصيل التي تعرض لها بعض الفلاسفة، كابن سينا وإخوان الصفا، وهؤلاء من مصادر الرازي. . .ولا سبيل إلى التعويل على القسمة المنطقية والعقل الخالص في أمثال هذه القضايا. أما العقل فحسبه أن يحكم بالإمكان، بينما الحدوث يحتاج إلى دليل آخر. وإنما التعويل هنا يكون على النصوص الشرعية، وبعدها لا بأس بأخذ أدلة الرازي الفلسفية على وجه الاستئناس لا غير.

وإنما لا نعول على الفكر المجرد في هذه الأشياء، لأنه لا يوصل إلى الحقيقة ولا شبهها. فالرازي مثلا اختار بمنطق صحيح ـ في الظاهر ـ أن أجرام الأفلاك في غاية اللطافة والشفافية، وليست ثقيلة[١]. وأنت تعلم خطأ هذا في علم الفلك، وكان ابن الهيثم أول من صرح بجسمية الأفلاك، بعد أن اقتصر القدماء من هيئتها على دوائر مجردة[٢].

والرازي نفسه صرح بهذا المعنى، عند الانتهاء من بعض هذه المباحث التي لا تدرك، فقال: «فهذا ما وصل إليه عقلي في هذه المباحث الضيقة، مع الاعتراف بأنا إنما ذكرناها على سبيل الظن والحسبان، لا على سبيل الجزم والبرهان. وكيف يستبعد ذلك، والعقول البشرية قاصرة عن معرفة أنفسها عرفانا كما ينبغي، فبأن تكون قاصرة عن معرفة هذه الأجرام البعيدة، كان أولى»[٣].

ـ الثانية: قول الرازي بأن الكواكب حية عاقلة.

ـ الثالثة: تجويزه أن يكون للكواكب تأثيرات في الأرض، بإذن الله تعالى وخلقه لها.

فلننظر في هاتين المسألتين، هل على القائل بهما من أهل الإسلام عيب أو شين، أم هي قضايا اجتهادية محتملة؟

---

(١) المطالب العالية، ٥/ ٣٤٠، ٣٥٧.

(٢) إرشاد القاصد، لابن الأكفاني، ص ٨٠. وابن الهيثم هو أبو علي الحسن بن الحسن، عالم في علوم الطبيعة والرياضيات.. ونحوها. نشأ بالبصرة وسافر كثيرا. وصنف: كتاب المناظر، في البصريات. الجامع في أصول الحساب. مقالة في الضوء. كتاب في تحليل المسائل الهندسية... توفي بالقاهرة سنة ٤٣٠، كما في معجم المؤلفين، ٣/ ٢١٥.

(٣) المطالب العالية من العلم الإلهي ، ٥/ ٣٧٦.

في حياة الكواكب:

والنظر فيها من جهتين:

١ ـ الجواز العقلي: ولا أظن أحدا يحكم باستحالة ذلك، قال الشيخ خواجه زاده الطوسي: «المبحث الرابع عشر، أنه هل للفلك نفس ناطقة، محركة له بالإرادة، أم لا؟ أثبتها الفلاسفة، وأنكرها المليون، لا بمعنى أنهم يحكمون باستحالة أن يكون له نفس متعلقة بجرمه ـ كتعلق نفوسنا بأبداننا، وتحركه بإرادتها كما تحرك نفوسنا بإرادتها أبداننا، فإنه لا دليل على استحالة ذلك ـ ولكن بمعنى أنه لا دليل على ثبوتها. والعلم به مفوض إلى الله تعالى، والطريق إلى معرفته ليس إلا الوحي. ولم يثبت الوحي عندنا لا بنفيها ولا بإثباتها، ولا يتم ما أورده الفلاسفة في معرض الاستدلال العقلي على ذلك»[١].

٢ ـ الوقوع الفعلي: فالنظر إذن هو في حدوث هذه الحياة، أعني هل ثمة أدلة على أن الكواكب حية حقيقة، وهل فعلا ليس في الوحي ما يرفع هذا الخلاف؟

وهنا يمكن أن نختلف مع الطوسي وكثير من المتكلمين الذين أنكروا هذه الحياة وأولوا ما في القرآن من أدلتها.

فالمسألة خلافية في الواقع، لا يتحقق فيها إجماع، قال الرازي ـ في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ ـ: «السؤال الثالث: ما معنى قوله ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾، والمؤثر في التسخير هو القدرة لا الأمر. والجواب: أن هذه الآية مبنية على أن الأفلاك والكواكب جمادات أم لا، وأكثر المسلمين متفقون على أنها جمادات، فلا جرم حملوا الأمر في هذه الآية على الخلق والتقدير، ولفظ الأمر بمعنى الشأن والفعل كثير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾، ومن الناس من يقول إنها ليست جمادات فهاهنا يحمل الأمر على الإذن والتكليف. والله أعلم»[٢].

ولم يعول المتكلمون على النصوص في هذه المسألة، وإنما على أدلة عقلية،

---

(١) تهافت الفلاسفة، للعلاء الطوسي، ص ٢٧٥. وانظر في ردود الطوسي على الفلاسفة ومناقشته لهم، ص ٢٧٥ إلى ٢٩٥. والمؤلف هو مصطفى بن يوسف، علاء الدين، ويعرف أيضا بخواجه زاده. من علماء الدولة العثمانية، وغلب عليه علم الكلام. الأعلام، ٨/١٤٨.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/٦، النحل ٤٠.

مثل قولهم: «إن حركة النجوم أبدا على رتبة واحدة لا تتبدل عنها، وهذه هي صفة الجماد الذي لا اختيار له، فالنجوم لا تعقل»(١).

أما ظاهر الوحي فيوجب أن كل المخلوقات حية تعبد ربها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾، الحج ١٨ . وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الإسراء ٤٤ .

يقول ابن تيمية: «النجوم من آيات الله الدالة عليه، المسبحة له، الساجدة له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾... ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾. وهذا التفريق يبين أنه لم يرد السجود لمجرد ما فيها من الدلالة على ربوبيته، كما يقول ذلك طوائف من الناس، إذ هذه الدلالة يشترك فيها جميع المخلوقات، فجميع الناس فيهم هذه الدلالة، وهو قد فرق؛ فعلم أن ذلك قول زائد من جنس ما يختص به المؤمن ويتميز به عن الكافر الذي حق عليه العذاب»(٢).

وقد كان اللخمي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول بهذا، ويحكي المازري أنه ذكر عنده قول القاضي ابن الطيب: تسبيح الجمادات مستحيل، فأنكره غاية الإنكار، وقال يرده قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، وكان ـ أي اللخمي ـ يستثقل كلام الأصوليين، فقال لي: خلوا ما أنتم عليه من كلام الأصوليين. فقال عبد الجليل: فهذا الحصير يسبح؟ فقال نعم. فأسكت أنا عبد الجليل لما رأيت من غيظه، أي غيظ اللخمي(٣).

ولذلك يقول ابن السبكي: «ذهب قوم إلى أن كل شيء من جماد وغيره يسبح

---

(١) الفصل، لابن حزم، ٥/ ١٤٧.

(٢) الفتاوى، ٣٥/ ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣) المعيار المعرب، لأبي العباس الونشريسي، ١٢/ ٣٤٥. إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب، ص ٨٨، لابن غازي المكناسي.وفي طريق آخر : فهذا الحصى يسبح؟ واللخمي هو أبو الحسن، علي بن محمد، الربعي. نزل صفاقس بتونس. فقيه مالكي كبير. من آثاره: التبصرة، وهو تعليق على مدونة مالك. توفي سنة ٤٩٨هـ. معجم المؤلفين ، ٧/ ١٩٧. والقاضي ابن الطيب هو الباقلاني.

بلسان المقال، وهذا هو الأرجح عندنا، لأنه لا استحالة فيه، ويدل له كثير من النقول»[١]. ثم ذكر بعضها. ولو كان

الجماد لا يفقه العبودية لله جل وعلا، فلم صار الجبل دكا وانهار حتى صار ترابا لما تجلى له رب العزة[٢].

ولا يمكن أن أفصل الكلام في هذه المسألة بأكثر من هذا القدر، وفي الفصل الثالث من كتابي عن الأصل الشرعي والنظري لاستشراف المستقبل كلام آخر عن هذا الموضوع، في الجماد: هل له فعل أم لا؟ وعلاقة ذلك بمشكلة السببية. وأنوي مستقبلا بإذن الله تعالى بحث هذه القضية في كتاب خاص.

وإذا قلنا بحياة الكواكب فلا نعني بها مثل هاته التي نعرف في أنفسنا، أو في الحيوان المشاهد. يجوز أن تكون حياة أخرى لا علاقة لها بحياتنا نحن ولا بطبيعتها ونوعها. بل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء: ٤٤ يشير إلى معنى آخر، وهو أنكم أيضا لن تفهموا شكل حياتهم. ولا ينبغي للإنسان أن يعتقد أنه تستحيل كل حياة لا يعرفها، فللملك ـ مثلا ـ حياة مخالفة لحياتنا، ولا نعلم عنها شيئا. والعلم يكتشف الجديد كل يوم. وقد قرأت ـ منذ زمن قصير ـ أن العلماء وجدوا مؤخرا شكلا آخر من الحياة، غير الحيوانية والنباتية والبكتيرية... شكلا رابعا، مستقلا عن غيره، وعرف لأول مرة منذ سنوات قليلة[٣].

لكن هذا لا يستلزم أن نقول بالنفوس الناطقة والجواهر العقلية والعقول الفعال منها وغير الفعال... وما إلى ذلك من تقريرات لا دليل عليها، فإن للفلاسفة أحيانا خيالا واسعا، كالمنجمين.

نكتفي بأن نقول بحياة الأفلاك وعقلها لأشياء، كالسجود لخالقها، ونقف هنا، فلا نتقدم ولا نتأخر. والله تعالى أحكم وأعلم.

---

(١) طبقات الشافعية، ٨/ ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) وهي قصة سؤال موسى عليه السلام رؤية ربه.

(٣) انظر مقالة هيرالد تريبيون، الصحيفة الدولية الناطقة بالإنجليزية: Article: Conflicting Claims to astrange, deep world. In: Herald Tribune, Wednesday 31 December, 1997, p2.

هل للكواكب إرادة؟

أما قول بعض أهل الكلام إننا رأينا حركات النجوم، فوجدناها تسير على رتابة واحدة لا تتغير، ولا تتبدل. . .فهذا صحيح، لكنه لا يدل على أنها جمادات لا تعقل شيئا، بل على أنها مخلوقات مسخرات لله تعالى، «فلو أرادت حركة غير حركتها، أو مكانا غير مكانها، أو هيئة أو حالا غير ما هي عليه، لم تجد إلى ذلك سبيلا»[١].

يقول ابن القيم في النجوم وحركاتها: «إن دلائل التسخير والاضطرار عليها من لزومها حركة لا سبيل لها إلى الخروج عنها ولزومها موضعا من الفلك لا تتمكن من الانتقال عنه واطراد سيرها على وجه مخصوص لا تفارقه ألبتة: أبين دليل على أنها مسخرة مقهورة على حركاتها محركة بتحريك قاهر، لا متحركة بإرادتها واختيارها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[٢].

وقد حكى الباقلاني قول من قال من المنجمين إن هذه الكواكب محدثة، لكنها مع ذلك حية قادرة قاصدة، وذكر استدلالهم على ذلك بظهور سير هذه النجوم وقطعها البروج وكونها فيها على ترتيب ونظام وفي الأوقات المعلومة. .[٣]. ثم قال: «على أنه لو قال قائل: إن ما يظهر من حركات النجوم وسيرها ودوران الفلك على نمط واحد وسجية واحدة غير مختلفة يدل على أنها مجبولة على ذلك، ومضطرة إليه، ومطبوعة عليه، على قول أصحاب الطباع، لكان ذلك أقرب؛ لأن المطبوع المجبول على الفعل من شأنه أن يكون ما يضطر إليه على سجية واحدة؛ وليس كذلك المتصرف باختياره؛ لأنه يفعل الشيء وضده وخلافه؛ فتأثيرات هذه النجوم لما تؤثره على سنن واحد يجري مجرى تأثير النار والثلج للتسخين والتبريد على سجية واحدة، وتأثير الطعام والشراب وما جرى مجرى ذلك؛ فما ظهر من حركاتها أقرب إلى أن يدل على قول أصحاب الطباع»[٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ص ٤٤٥.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٤٤٦.

(٣) التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، للباقلاني، ص ٦٣.

(٤) التمهيد، ص ٦٤.

فلا إرادة للكواكب ولا اختيار، وهذا أيضا فحوى النصوص، فهذه أثبتت لها الحياة، لكن لم تنسب إليها اختيارا أو تحكما، فيبقى ذلك على النفي حتى يقوم الدليل بخلافه.

في تأثير الكواكب:

لو أحب القارئ الكريم أن ألخص له هذه القضية في كلمة واحدة، لقلت له: إنها مسألة العلية المجعولة بعينها.

فمن أنكر العلاقة السببية، وقال إنها تدل على العادة فقط، قال إن تأثيرات النجوم، من الشمس والقمر... وسائر الكواكب... أفعال الله تعالى، يخلقها عند بروز هذه الأسباب الظاهرية...

فليس للشمس قدرة على أن تهبنا النور، ولا أن تسخن الأرض، ولا أن تنمي النبات... وإنما الباري يخلق هذه الآثار عند طلوع الشمس ومواجهتها للأرض، أي أنه سبحانه يفعل عندها لا بها. قال الباقلاني: «وأما تعلقهم في إثبات تأثيرات هذه الكواكب بحمي الزمان عند قرب الشمس، وبرده عند بعدها عن عالمنا، وكون الاعتدال في زمن الخريف والربيع عند توسطها، فإن ذلك أجمع لا يدل على أن ما يحدث في عالمنا من هذه الأمور من فعلها، كما لا يدل حدوث التبريد والتسخين في الأجسام عند مجاورة الثلج والنار على أن ذلك من فعلها. وكل شيء نقضنا به على القائلين بفعل الطباع بهذا الاستدلال، فهو بعينه ناقض لتعلق المنجمين به»[1].

ومن قال بالسببية الحقيقية، نسب إلى النجوم هذه الآثار وغيرها، لكن لا على طريق الاستقلال التام، بل ذلك بجعل الله تعالى، فهو يفعل بها لا عندها.

وهي كغيرها من الأسباب الأرضية، ولا ميزة لها عليها من هذا الوجه، إذ كلها أدوات للفعل الإلهي. ولذلك يجوز أن يربط الله سبحانه بين أوضاع معينة للنجوم، وبين أقدار إلهية تكون في الأرض وتمس حياة الناس، ويكون لهذه النجوم دور في هذه الأقدار، كما يكون للنار دور في الإحراق. وهذا كلام ابن تيمية، أنقله بطوله لأنه يعين على كشف هذا المعنى الدقيق، قال عن النجوم: «وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده، وسخرها لهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ

(١) التمهيد، ص ٦٤.

وَٱلْقَمَرَ دَآبِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1]. ومن منافعها الظاهرة ما يجعله سبحانه بالشمس من الحر والبرد، والليل والنهار ونضاج الثمار وخلق الحيوان والنبات والمعادن، وكذلك ما يجعله بها لهم من الترطيب والتيبيس؛ وغير ذلك من الأمور المشهودة، كما جعل في النار الإشراق والإحراق، وفي الماء التطهير والسقي، وأمثال ذلك من نعمه التي يذكرها في كتابه كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾[2]. وقد أخبر الله في غير موضع أنه يجعل حياة بعض مخلوقاته ببعض، كما قال تعالى: ﴿لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾... فمن قال من أهل الكلام: إن الله يفعل هذه الأمور عندها، لا بها. فعبارته مخالفة لكتاب الله والأمور المشهودة؛ كمن زعم أنها مستقلة بالفعل هو مشرك مخالف للعقل والدين.

وقد أخبر سبحانه في كتابه عن منافع النجوم، فإنه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وأخبر أنها زينة للسماء الدنيا، وأخبر أن الشياطين ترجم بالنجوم، وإن كانت النجوم التي ترجم بها الشياطين من نوع آخر غير النجوم الثابتة في السماء التي يهتدى بها، فإن هذه لا تزول عن مكانها، بخلاف تلك، ولهذه حقيقة مخالفة لتلك، وإن كان اسم النجوم يجمعها، كما يجمع اسم الدابة والحيوان للملك، والآدمي، والبهائم، والذباب والبعوض.

وقد ثبت بالأخبار الصحيحة التي اتفق عليها العلماء عن النبي ﷺ أنه أمر بالصلاة عند كسوف الشمس والقمر؛ وأمر بالدعاء والاستغفار والصدقة والعتق...

فذكر أن من حكمة ذلك تخويف العباد؛ كما يكون تخويفهم في سائر الآيات: كالرياح الشديدة، والزلازل، والجدب، والأمطار المتواترة، ونحو ذلك من الأسباب التي قد تكون عذابا؛ كما عذب الله أمما بالريح والصيحة، والطوفان، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۚ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ۚ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ۚ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾. وقد قال: ﴿وَءَاتَيْنَا

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٣. ثم الأعراف ٥٤. الجاثية ١٣.

(٢) الفرقان ٤٨ ـ ٤٩.

ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ، وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1]. وإخباره بأنه يخوف عباده بذلك يبين أنه قد يكون سببا لعذاب ينزل، كالرياح العاصفة الشديدة. وإنما يكون ذلك إذا كان الله قد جعل ذلك سببا لما ينزل في الأرض.

فمن أراد بقوله: إن لها تأثيرا، ما قد علم بالحس وغيره من هذه الأمور، فهذا حق؛ ولكن الله قد أمر بالعبادات التي تدفع عنا ما ترسل به من الشر، كما أمر النبي ﷺ عند الخسوف بالصلاة والصدقة والدعاء والاستغفار والعتق، وكما كان ﷺ إذا هبت الريح أقبل وأدبر وتغير، وأمر أن يقال عند هبوبها: «اللهم إنا نسألك خير هذه الريح، وخير ما أرسلت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما أرسلت به». وقال: «إن الريح من روح الله، وإنها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فلا تسبوها؛ ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا بالله من شرها»[2]. فأخبر أنها تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، وأمر أن نسأل الله من خيرها، ونعوذ بالله من شرها.

فهذه السنة في أسباب الخير والشر: أن يفعل العبد عند أسباب الخير الظاهرة والأعمال الصالحة ما يجلب الله به الخير. وعند أسباب الشر الظاهرة من العبادات ما يدفع الله به عنه الشر. فأما ما يخفى من الأسباب فليس العبد مأمورا بأن يتكلف معرفته: بل إذا فعل ما أمر به وترك ما حظر: كفاه الله مؤونة الشر، ويسر له أسباب الخير...

وأما إنكار بعض الناس أن يكون شيء من حركات الكواكب وغيرها من الأسباب فهو أيضا قول بلا علم، وليس له في ذلك دليل من الأدلة الشرعية ولا غيرها ، فإن النصوص تدل على خلاف ذلك، كما في الحديث الذي في السنن عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: يا عائشة! تعوذي

---

(١) العنكبوت ٤٠. الإسراء ٥٩.

(٢) حديث إقبال النبي ﷺ وإدباره إذا هبت الريح، وهو تعبير عن قلقه عليه السلام، تقدم تخريجه. أما حديث الريح من روح الله... فقد رواه البخاري في كتاب الأدب المفرد ـ وهو غير الجامع الصحيح ـ ، وأبو داود في السنن، والنسائي في كتابه «عمل اليوم والليلة»، غير سننه، وابن ماجه في الأدب من سننه. وصححه الحاكم في المستدرك وأقره عليه الذهبي، وصححه السيوطي أيضا، بينما اكتفى النووي بتحسينه. كذا في الجامع الصغير، ٢/ ٢٨، وشرحه فيض القدير ٤/ ٦٠، معا . قال المناوي : «أي الريح من روائح الله، أي من الأشياء التي تجيء من حضرة الله بأمره... (من شرها) أي شر ما أرسلت به فإنها مأمورة، وتوبوا عند التضرر بها، وهذا تأديب من الله...» فيض القدير ٤/ ٦٠.

بالله من شر هذا، فهذا الغاسق إذا وقب». وكما تقدم في حديث الكسوف حيث أخبر «أن الله يخوف بهما عباده».

وقد تبين أن معنى قول النبي ﷺ: «لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته»، أي لا يكون الكسوف معللا بالموت، فهو نفي العلة الفاعلة، كما في الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن ابن عباس، عن رجال من الأنصار، أنهم كانوا عند النبي ﷺ إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟ فقالوا: كنا نقول: ولد الليلة عظيم، أو مات عظيم، فقال: «إنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله إذا قضى بالأمر سبح حملة العرش»، وذكر الحديث في مسترق السمع، فنفى النبي ﷺ أن يكون الرمي بها لأجل أنه قد ولد عظيم أو مات عظيم، بل لأجل الشياطين المسترقين السمع. ففي كلا الحديثين من أن موت الناس وحياتهم لا يكون سببا لكسوف الشمس والقمر ولا الرمي بالنجم؛ وإن كان موت بعض الناس قد يقتضي حدوث أمر في السماوات، كما ثبت في الصحاح «أن العرش ـ عرش الرحمن ـ اهتز لموت سعد بن معاذ». وأما كون الكسوف أو غيره قد يكون سببا لحادث في الأرض من عذاب يقتضي موتا أو غيره فهذا قد أثبته الحديث نفسه»[1].

لا يقال بأن الاعتقاد في وجود أثر ما للجماد أو للكواكب.. ظن شرك يخالف عقيدة الفاعلية الإلهية المهيمنة على الكون.. لأن هذا يلزم أيضا على فعل العاقل؛ لقد وصف الباري ملائكته بالتدبير، فقال: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾، فهل هذا يعني أن لله شركاء في تدبير أمر الكون. إنها مرة أخرى مشكلة العلية.

كيفية اعتبار النجوم على ذين المذهبين:

فأما على القول بالسببية العادية، فإن النجوم تكون دلالات أو علامات على أقدار الله تعالى. يقول الباقلاني: وفي القائلين بالتنجيم «من أقر منهم بالإسلام، وأذعن لحدوثها أي (النجوم)، وأنها متعلقة بمحدث أحدثها، وزعم أن الله تعالى جعلها دلالة على ما يحدث في العالم في أوقاته»[2]. وقال المازري: قال

---

(١) اختصرته ما أمكن من الفتاوى ٣٥/ ص ١٦٧ إلى ١٧٥. وحديث اهتزاز العرش لموت سعد رضي الله عنه، رواه مسلم وأحمد عن أنس، والبخاري والترمذي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله. كما في الجامع الصغير، ١/ ٤٢٢.

(٢) التمهيد ، ص ٦٧.

الإسلاميون منهم: لا خالق إلا الله عز وجل، وإنما هي علامة على الغيوب بدلالة أجراها الباري جلت قدرته، كما أجرى الغيوم والسحب الثقيلة دلالة على الأمطار، وإن كانت ربما خابت[١].

وأما على القول بالسببية الحقيقية، فإنه تكون للنجوم قوى وطبيعة بها تفعل. قال ابن تيمية: «المخلوقات العلوية والسفلية يمسكها الله بقدرته سبحانه، وما جعل فيها من الطبائع والقوى فهو كائن بقدرته ومشيئته سبحانه»[٢].

أي فعل الباري سبحانه في هذه الجواهر قوى طبيعية تفعل بها فينا، كما خلق في النار قوة وطبيعة تحرق بها، ويحتجون على ذلك بمشاهدتهم الشمس تسخن وتصلح أكثر النبات، وقالوا غير مستنكر أن يكون لقرانات الكواكب آثار غير هذه[٣].

اتفاقهما على إنكار دعاوي المنجمين حول وجود تأثيرات معينة للنجوم:

فإذا تمهد بيان علاقة السببية بالموضوع، قلت: لم أجد ـ فيما وصل إليه علمي واطلاعي ـ أحدا من علماء المسلمين المعتبرين صحح الآثار التفصيلية التي ينسبها المنجمون إلى الكواكب، بل قالوا لم يدل دليل على هذه الدعاوي.

فأما على القول بالسببية العادية، فإن الرد يكون كما قال الباقلاني: «الدليل المتعلق بمدلوله لا بد أن تكون جهة تعلقه به معروفة معلومة، كجهة الكاتب بالكتابة وبكون صانعها عالما، ودلالة الحوادث على حدوث ما لا يسبقها ولا ينفك منها، ودلالة المعجزات على صدق صاحبها، وأمثال ذلك مما قد عرف جهة تعلق الدليل فيه بمدلوله. ولا وجه من قبله يعلم لدلالة كون هذه الأفلاك في البروج وسيرها وحركاتها على حدوث ما يحدث من الأمطار والنماء والنقصان وغلاء الأسعار وسفك الدماء وسكون الهيج والفساد وعلى ما يستسر الناس بعلمه وما ينطوون عليه»[٤].

---

(١) المعلم بفوائد مسلم، ٣/١٠٨ ، كتاب الطاعون.

(٢) الفتاوى، لابن تيمية، ص ٦/٥٩٦.

(٣) المعلم ، للمازري، ٣/١٠٦. وانظر فيه رد المازري على القول بالطبيعة.

(٤) التمهيد ، ص ٦٧.

وأما على مذهب السببية الحقيقية، فكما قال ابن القيم: «نحن لا ننكر ارتباط المسببات بأسبابها كما ارتكبه كثير من المتكلمين وكابروا العيان وجحدوا الحقائق، كما أنا لا نرضى بهذيانات الأحكاميين ومحالاتهم، بل نثبت الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ونبين مع ذلك بطلان ما يدعونه من علم أحكام النجوم، وأنها هي المدبرة لهذا العالم. فغاية الحركات النجومية والاتصالات الكوكبية أن تكون كالعلل والأسباب المشاهدة التي تأثيراتها موقوفة على انضمام أمور أخرى إليها وارتفاع موانع تمنع تأثيرها. فهي أجزاء أسباب غير مستقلة ولا موجبة، هذا لو أقمتم على تأثيرها دليلا، فكيف وليس معكم إلا الدعاوى وتقليد بعضكم بعضا»[1].

فسواء أكانت النجوم دلالات على الأقدار، أم قوى فاعلة... لا دليل لنا من العقل الصريح، ولا من النقل الصحيح، ولا من التجارب الواضحة. على وجود هذه الآثار التي يقول بها المنجمون بهذا التفصيل الكثير.

كيفية تأثير الكواكب:

ويرد بعضهم مسألة جواز تأثير النجوم بأنها لا تعقل، فالكوكب كتلة هائلة من الصخر والتراب والغاز، وكيف يمكن أن يتعلق بهذا أثر ما على الإنسان.

وهذا الاعتراض غير مستقيم. صحيح أن تأثير النجم ـ لو قلنا به ـ غريب، بل يصعب أن نتصور كيف لكوكب بعيد عنا أن يكون له فعل ما في حياتنا... ومع ذلك، فهذا يعقل، أعني ليس بمحال، ويجوز أن يخلق الباري جلت قدرته في الكوكب خاصية معينة بها يكون مؤثرا، أو قابلا للتأثر.

وقد حاول الباقلاني أن يرد هذا الاحتمال بوجهين:

١ ـ قال إن هذه الحوادث الأرضية لا تخلو أن تكون واجبة عن ذوات الأفلاك، أو عن أكوانها في البروج المعلومة. أي إما أن يكون سبب التأثير هو الكوكب بذاته، أو هو وجوده في البرج المعين. وكلاهما مردود. فأما الأول فلأن الدليل قام على تجانس الأجسام وتماثلها، وهذا يوجب أن يكون لكل الأجسام ـ بما فيها الأجرام السماوية ـ نفس الآثار.

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤. وانظر، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

وأما الثاني، فلأنه يجب عليه أن يكون لأي كوكب كوكب نفس الأثر، بمجرد وجوده في البرج، فيكون كون القمر والمشترى في برج الحمل موجبا لما يوجبه كون الشمس فيه. والمفروض أيضا «أن يكون كوننا نحن في ذلك البرج، لو وجدنا فيه، أو بعض الحجارة، موجبا من التأثير مثل الموجب عن كون الشمس فيه.»[١]

٢ ـ إن التأثير يستلزم المماسة، وهي هنا غائبة[٢]، «ومن شرط أفعال المحدثات بعضها في بعض أن تكون باتصال ومماسة أو بوسائط»[٣]. وأين ذلك بيننا وبين النجوم.

فأما الرد الأول فهو ينبني على القول بتجانس الأجسام، وهو غير مسلم لدى جميع المتكلمين، بل هو قول بعضهم. ثم لعل في اختلاف تركب الأجسام بعضها مع بعض ما يفسر اختلاف آثارها، أعني أنه لا يلزم من تساويها في بساطتها تساويها في تركيبها.

أما الرد الثاني فهو نفسه حجة الديكارتيين الذين أنكروا الجاذبية وبالغوا في الرد على نيوتن وتسفيهه، وقالوا كيف للكوكب البعيد أن يمارس جاذبيته على الأرض، رغم هذا الفراغ الهائل بينهما... وقد نشأ عن هذا الجدل معركة فلسفية معروفة، في القرن السابع عشر.

فجهلنا بكيفية تأثير الكوكب ليس عذرا لرد أي فعل محتمل للكوكب. والأولى عندي لمن يقول بعدم وجود أي آثار للكواكب ـ غير الآثار الفيزيائية المحسوسة ـ أن يطالب بالدليل ويقول: لم يقم أي دليل على وجود هذه الآثار على الإنسان، مع إمكانها في العقل والشرع. وليس على النافي دليل، كما يقول علماء الأصول.

حدود علية النجوم:

وحتى لو نسبنا إلى النجوم آثارا، وأثبتنا لها ـ بجعل الله تعالى ـ أفعالا، فغاية ذلك أن يكون سببا من أسباب كثيرة سخرها الباري في الوجود، وهي ـ بالنسبة إلى كل أثر أثر ـ جزء سبب فقط، وإذا لم يرفع الله تعالى الموانع والعوائق من طريق هذا الجزء، ما أمكن أن يكون له أثر.

---

(١) التمهيد، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) التمهيد، ص ٦٧.

(٣) المعلم، ٣/ ١٠٧.

ولذلك يرى ابن خلدون أن المعرفة التامة تقتضي العلم بجميع الأسباب والإحاطة بها. والقوى النجومية ليست هي الفاعلة بجملتها، بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي، مثل قوة التوليد للأب، والنوع التي في النطفة. «فالقوى النجومية إذا حصل كمالها، وحصل العلم فيها، إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب الفاعلة للكائن»[١]. والمنجمون «أكثر ما يعلمون ـ إن علموا ـ جزء يسيرا من جملة الأسباب الكثيرة، ولا يعلمون بقية الأسباب، ولا الشروط ولا الموانع»[٢].

فغاية فعل النجوم ـ إن أثبتناه ـ أن يكون جزء يسيرا من جملة الأسباب[٣]، ولذلك يقول ابن قيم الجوزية في التنجيم: «غاية هذا لو صح وسلم من الخلل جميعه ـ ولا سبيل إليه ـ لكان جزء السبب والعلة، والحكم لا يضاف إلى جزء سببه. ثم لو كان سببا تاما فصوارفه وموانعه لا تدخل تحت الضبط ألبتة، والحكم إنما يضاف إلى وجود سببه التام وانتفاء مانعه. وهذه الأسباب والموانع مما لا تدخل تحت حصر ولا ضبط، إلا لمن أحصى كل شيء عددا وأحاط بكل شيء علما، لا إله إلا هو علام الغيوب. فلو ساعدناهم على صحة أصول هذا العلم وقواعده لكانت أحكامهم باطلة، وهي أحكام بلا علم لما ذكرناه من تعذر الإحاطة بمجموع الأسباب وانتفاء الموانع، ولهذا كثيرا ما يجمعون على حكم من أحكامهم الكاذبة فيقع الأمر بخلافه كما تقدم»[٤].

فـ «الشمس جزء السبب، والهواء جزء السبب، والأرض جزء، وانعكاس الشعاع جزء، وقبول المنفعلات جزء؛ مجموع ذلك سبب واحد، قدره العليم القدير وأجرى عليه نظام العالم. وقدر سبحانه أشياء أخر لا يعرفها هؤلاء الجهال ولا عندهم منها خبر من تدبير الملائكة وحركاتهم وطاعة إسطقسات العالم ومواده لهم وتصريفهم تلك المواد بحسب ما رسم لهم من التقدير الإلهي والأمر الرباني. ثم قدر تعالى أشياء أخر تمانع هذه الأسباب عند التصادم وتدافعها وتقهر موجبها

(١) المقدمة، ص ٤٠٦.

(٢) الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/ ١٧٣.

(٣) الفتاوى، لابن تيمية، ٣٥/ ١٧٨.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص ٥٤٩.

ومقتضاها ليظهر عليها أثر القهر والتسخير والعبودية، وأنها مصرفة مدبرة بتصريف قاهر قادر»[١].

وقد اعترف بهذا إمام أهل التنجيم، فهو يرى أن المنجم إذا لم يكن على علم بطبائع الشعوب، واختلاف المناخ بين مناطق العالم، وما لكل قوم من معتقدات وعادات وأمزجة... ونحوها، فإنه يغلط باعتماده فقط على مقتضى أوضاع الأفلاك[٢].

وعلق أبو القاسم عيسى على هذا التنبيه الذي ذكره بطليموس، فقال: «هذا ونحوه يدل على أن الأمور وغيرها إنما هي بحسب اختلاف العوائد والسنن والبلاد وخواص الأنفس واختلاف الأسنان والأغذية وقواها أيضا مما فيها تأثير قوي، وكذا الهواء والتربة واللباس وغيرها، كل هذه لها تأثير في الأخلاق والأعمال، وأكبرها العوائد والمربا والمنشأ. فإحالة هذه الأمور على الكواكب والطالع والمقارنة والمفارقة والمناظر من أبين الجهل. ولهذا اضطر إمام المنجمين ومعلمهم إلى مراعاة هذه الأمور، وأخبر أن الحاكم بدون معرفتها والتشبث بها يكون مخطئا. وحينئذ فالطالع المعتبر المؤثر إنما هو طالع العوائد والسنن والبلاد وخواص هيآت النفوس الإنسانية وقوى أغذية أبدانها وهوائها وتربتها، وغير ذلك مما هو مشاهد بالعيان وتأثيره في ذلك. أفليس من أبين الجهل الإعراض عن هذه الأسباب والحوالة على حركات النجوم واجتماعها وافتراقها ومقابلتها في تربيع أو تثليث أو تسديس، مما لو صح لكان غايته أن يكون جزء سبب من الأسباب التي تقتضي هذه الآثار»[٣].

تخمين لي في الموضوع:

وعندي تخمين في قضية التنجيم، لا ينبني ـ في الحقيقة ـ على أدلة صلبة، فهو أقرب إلى الحدس الذي يخطئ ويصيب منه إلى الرأي العلمي المؤسس على الحجج والأدلة. وهذا التخمين هو ثمرة لقراءاتي في التنجيم، فلقد قرأت فيه كتبا

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٨٣.

(٢) راجع: Ptolémé: Tétrabible, p 11 et après

(٣) رسالته في التنجيم التي نقلها ابن القيم في: مفتاح دار السعادة، ص ٤٩٢.

مختلفة، وباللغتين العربية والفرنسية، وصرفت فيه زمانا وجهدا، وشغل ذهني أياما، وتأملت وقارنت طويلا . . . فأقول لذلك:

يحتمل أن في التنجيم طرفا غير معين من الحقيقة. ويجوز أن يكون ذلك بأحد هذه الطرق:

١ ـ أن يكون علما أنزله الله تعالى للناس، في بداية أمرهم، كما علم آدم الأسماء كلها.

٢ ـ أن يكون علما اختص به نبي ما في غابر الأزمان، فكان يعرف من حركات الكواكب أشياء يحدثها الله تعالى في أرضه، فتكون هذه الحركات علامات لمراد الله سبحانه. ثم إن الناس نسبوا تلك الأشياء إلى الكواكب نفسها، ولم تعد مجرد دلالات على الأقدار.

وعلى هذا يكون علم النجوم الأول الذي أوتيه نبي أو بعض الأنبياء، مثل الخط، فقد كان الخط في الرمل علما نبويا، ثم انتهى، ويزعم بعض الناس أن ما في أيديهم مما يسمى بعلم الرمل هو بقية من هذا العلم القديم[1].

٣ ـ أو يكون علما جعله الله عز وجل معجزة لنبي يتحدى بها قومه.

وفي كل الأحوال ينبغي أن يكون هذا العلم الأولي قد رفع من على الأرض أو اندثر. لكن استمرت منه بقايا بين أيدي الناس، فحرفوها وزادوا ونقصوا وتصرفوا. وتطاولت على ذلك أجيال، ومرت دهور. . . حتى غلب الباطل الكثير الحق القليل، وضاع هذا الحق وذهبت ملامحه، فلا سبيل إلى تمييزه ولا دركه، ولا إلى معرفته أو تحديده. وإنما أضفت هذا العلم إلى الباري سبحانه، أنزل للناس منه طرفا، أو علمه نبيا من أنبيائه. . لأن مثله مما يتلقى بالوحي والتوقيف، ولا سبيل للإنسان في معرفة هل للنجوم آثار أم لا، وإن كانت فما هي. . . إلا بإخبار الله تعالى له بذلك، لأنه شيء لا يتوقف على العقل المحض، ولا على منطق أو تجربة. . فإن كان قد كان، فبطريق النبوة ـ ونحوها ـ ، ولا بد.

---

(١) انظر كتابي: الغيب والمستقبل، ففيه مبحث خاص بهذا الفن. وانظر فيه أيضا حديث أهل التفسير عن أصل السحر، من خلال آية السحر بسورة البقرة..

بعض ما يمكن إيراده للاستئناس بهذا التخمين:

١ ـ فمن ذلك حديث الاستعاذة بالله تعالى من شر القمر إذا وقب. فيجوز أن يحدث الله سبحانه من أقداره ما يشاء، وأن يختار لذلك وقت إظلام القمر، ويكون القمر نفسه أحد أسباب هذه الأقدار.

وإنما أمر النبي ﷺ بالاستعاذة بالله وحده، لا بالقمر وظلمته، لأن الفاعل ـ على وجه التحقيق ـ هو الباري جل جلاله، وغاية ما يصل إليه خلقه أن يكون من أدوات قضائه وقدره.

٢ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا[١].

وقد ذكر ابن القيم هذا الحديث في الاحتجاج على المنجمين، قال: «لو كان علم الأحكام النجومية حقا لا باطلا لم ينه عنه النبي ﷺ ولا أمر بالإمساك عنه، فإنه لا ينهى عن الكلام في الحق، بل هذا يدل على أن الخائض فيه خائض فيما لا علم له به، وأنه لا ينبغي له أن يخوض فيه ويقول على الله ما لا يعلم. فأين في هذا الحديث ما يدل على صحة علم أحكام النجوم»[٢].

لكنني أختلف مع ابن القيم في طريقة نظره في الحديث، ويمكن للواحد أن يزعم أن النبي ﷺ إنما نهى عن الكلام في النجوم، لأن أمرها غامض وشأنها محتمل، فلعل المتكلم يخطئ حقا منها، أو يصحح باطلا فيها، من حيث لا يدري. وكيف يدري ويتكلم في النجوم، وليس في الوحي المنزل إلينا بيان شاف في أمورها، ولا في العقل طريق إلى معرفة جميع حقائقها ومتعلقاتها، ولا يمكن التعويل على التجربة التي لا تفيد ههنا شيئا، على الأقل إلى عصرنا هذا . . .؟

ولو كان الأمر كما قال ابن القيم «أن النبي ﷺ لا ينهى عن الكلام في الحق»،

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، وقال الهيثمي: فيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وغيره، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وذكر رواية أخرى عن ثوبان رضي الله عنه رواها الطبراني أيضا، وقال فيه يزيد بن ربيعة، وهو ضعيف. كذا في باب النهي عن الكلام في القدر. من: مجمع الزوائد، ٧/ ٢٠٢. والحديث حسنه كل من الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار»، ١/ ٤١، والسيوطي في الجامع الصغير، ١/ ٩٥.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٥٣٥.

لما نهانا عن الخوض في القدر، فهو حق. . . بل يدل قران النجوم بالقدر على أن الأولى بالإنسان أن ييأس من أن يدرك بعقله المحدود ما استأثر الباري تعالى بعلمه ومنعه عن خلقه.

٣ ـ وفي الحديث الصحيح أن من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد[١]. فلو أخذنا بمذهب الجمهور في أن للسحر حقيقة، جاز أيضا أن يكون للتنجيم حقيقة، وأن يكون له أصل، باعتباره جزء من السحر. لكن الحقيقة في التنجيم ـ كما قدمت ـ جزء بسيط من بحر الأباطيل الذي يحفل به هذا الفن. هذا إذا صح هذا التخمين.

٤ ـ حديث مسخ المرأة إلى كوكب:

في خبر لابن عمر ـ رفعه إلى النبي ﷺ ـ قصة طويلة، ملخصها أن الله تعالى أنزل إلى الأرض ملكين، وركب فيهما بعض الطبائع البشرية، لاختبارهما. ثم إنهما فتنا بامرأة اسمها الزهرة، فاحتالت عليهما حتى عرفت منهما الكلمة التي يصعدان بها إلى السماء. ثم إنها حين طلعت إلى السماء بهذه الكلمة مسخها الله تعالى كوكبا[٢]، فهو نجم الزهرة، الذي نراه، أو هو شهاب آخر، على خلاف[٣]. وللمحدثين رأيان في هذا الحديث:

أ ـ أورد السيوطي هذا الخبر في «اللآلئ المصنوعة»، بطريق سنيد بن داود عن الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع عن ابن عمر، وقال لا يصح. ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر في رسالته « القول المسدد» ذكر أن الإمام أحمد أخرج هذا الحديث في المسند، وكذلك ابن حبان في صحيحه من طريق زهير بن محمد بن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر. . . وقال ابن حجر: وله طرق جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليه يقطع بوقوع هذه القصة، لكثرة الطرق الواردة فيها وقوة مخارج أكثرها[٤].

---

(١) رواه أبو داود في السنن، كتاب الطب، بابا ٢١ و ٥١. وابن ماجه في الأدب، باب ٢٨. والحديث حسنه السيوطي في الجامع الصغير، ٢/ ٥٧٨، وصححه النووي في رياض الصالحين.

(٢) راجع القصة بطولها في كتب التفسير، وأكثر التفاسير بالمأثور توردها عند قصة نزول الملكين ببابل، في سورة البقرة، آية ١٠٢.

(٣) معالم التنزيل، للبغوي، ١/ ١٣٠. وانظر في مسألة المسخ هذه: تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص ١٧٢. وقارن بـ : الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٣٦ ، البقرة ، ١٠٢.

(٤) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، ١/ ١٥٨ ـ ١٥٩. وينبغي أن يعرف القارئ أن مجرد ورود =

ثم قال السيوطي: « وقد وقفت على الجزء الذي جمعه، فوجدته أورد بضعة عشر طريقا، أكثرها موقوفا، وأكثرها من تفسير ابن جرير. وقد جمعت أنا طرقها في التفسير المسند وفي التفسير المأثور فجاءت نيفا وعشرين طريقا، مابين مرفوع وموقوف. . . ولحديث ابن عمر بخصوصه طرق متعددة من رواية نافع وسالم ومجاهد وسعيد بن جبير، وورد من رواية علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وعائشة وغيرهم، والله أعلم»[(١)].

ب ـ أما الحافظ السخاوي فقد ذكر مخرجي الحديث، ومال إلى رأي البيهقي الذي اعتبره من كلام كعب الأحبار، وقصصه الإسرائيلية[(٢)].

وليس لي رأي في هذا الخلاف، فالله تعالى أعلم، وإليه مرد كل شيء.

الحكمة من بقاء التنجيم ومن النهي عنه:

وعلى هذا التخمين يمكن أن يسأل سائل: لم استمرت هذه البقية من علم النجوم الأول، ولم تندثر ؟

= حديث في كتاب اللآلئ ـ أومثله ـ لا يعني أنه حتما موضوع، ولا أنه ضعيف جدا... وإن كان ذلك حال أكثرها. ففي اللآلئ أحاديث غير موضوعة، وفيه مناقشات وبحوث، ولذلك كثيرا ما يرد السيوطي ـ عن بعض الأحاديث التي يذكرها في كتابه ـ تهمة الوضع. وهذه الملاحظة تصدق على كثير من كتب الموضوعات.

أما ابن حجر، فإنه لما قيل إن في مسند أحمد أحاديث موضوعة، أنكر ذلك، ونفى الموضوع عن المسند، وقال غاية ما فيه الضعيف، وصنف لذلك «القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد».

راجع ما أورده عبد الرحمن البنا في مقدمة ترتيبه لمسند أحمد المسمى بـ : الفتح الرباني، ١/ ٨ فما بعدها.

(١) اللآلئ المصنوعة، ١/ ١٥٩. السيوطي هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، عالم كثير التصنيف جدا، وغلب عليه علما الحديث والعربية. توفي بالقاهرة عام ٩١١ هـ. الأعلام، ٤/ ٧١.

(٢) المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، ص ٤٥٥. والكتاب لأبي عبد الله، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، المحدث والمؤرخ، المصري، توفي بالمدينة سنة ٩٠٢هـ. من تآليفه: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. الأصل الأصيل في تحريم النظر في التوراة والإنجيل. عن معجم المؤلفين، ١٠/ ١٥٠. قلت: وله أيضا الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. والبيهقي هو الحافظ أحمد بن الحسين (٤٥٨هـ) صاحب السنن الكبرى. وكعب الأحبار تابعي أدرك كبار الصحابة، وهو من مسلمة يهود اليمن. توفي بحمص سنة ٣٢هـ. الأعلام، للزركلي، ٦/ ٨٥.

والجواب: يجوز أن يكون هذا البقاء للابتلاء، فهذا مثل السحر الذي أنزل على الملكين، فالشارع يعترف بحقيقته، وهو مع ذلك ينهى عنه، ولذلك كان الملكان يقولان لمن يسألهما شيئا من أمور السحر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ، فَلَا تَكْفُرْ﴾، البقرة ١٠٢ .

أما لماذا نهانا الشرع عن التنجيم المعروف ومنعنا منه، أعني على القول بأن فيه طرفا يسيرا من الصواب، فلهذا احتمالات:

١ ـ لأن الصواب فيه اختلط بالباطل الغالب، ويتعذر استخلاصه منه، والحكم يدور مع الأغلب.

٢ ـ لأن ضرره أكثر من نفعه، كما يشهد عليه الواقع.

٣ ـ لأن الاشتغال به يؤدي ـ في الغالب ـ إلى الوقوع في الإشراك بالله تعالى، أو على الأقل في المعصية. والتنجيم إن لم ينكر فاعلية الباري في خلقه، فهو يضعفها جدا، بنسبته أكثر التصرفات في العالم إلى النجوم. والأقرب أن تكون كل هذه الاحتمالات قائمة وصحيحة.

كلام أخير:

فإن قلت على أي شيء ينبغي التعويل في هذا الموضوع، على فرض صحة تخمينك هذا؟

قلت التعويل يكون على الوحي الصحيح، والذي بين أيدينا اليوم هو النهي الصريح عن التنجيم، فلا يجوز اعتقاده، ولا العمل به، ولا الرجوع إليه، ولا تصديق أهله. فهذا هو المحكم، لا ندعه فنتمسك بالمتشابه. ولذلك يقول الخطيب:

«لو كان النظر في أحكام النجوم يفيد علما صحيحا، لم يجز لنا استعماله؛ لأن شريعتنا قد حظرته ونهت عنه، فلا يجوز لمسلم الدخول فيه، وكيف يجوز استعمال ذلك وقد حظر علينا النبي ﷺ ما دونه من تعليق الخرز والحلق للمنفعة بها»[1].

(١) القول في علم النجوم، ص ١٧٢.

فالذي أقول به هو تحريم التنجيم رأسا، والإعراض عن الاشتغال به كلية. وهذا قول الفقهاء جميعا. وبيان هذا وغيره من الأحكام التفصيلية للمنجمين والتنجيم في الفصل الآتي.

obeikandl.com